قصة قصيرة

الزّجاج

لطفيّة الدليمي

في المدن يضعون ألواح الزجاج اللامعة على النوافذ وواجهات الابنية وحواجز عيادات الاطباء والمطاعم . وهناك ، لهذه الاغراض أو لغيرها ، يستعمل زجاج يشفّ عما وراءه دونما عناء أو قصد ، وهو نوع من الزجاج لا يثير شيئا من الضيق في النفس ، وينساه المرء ولا يعود يفكر بأمره ، بل يعتبره جزءا من عالم مسلّم به ، ويوحي لنفسه بأنه موضوع هكذا في أماكنه، منذ الازل ، كالاشجار المعمرة أو التلال أو الانهار .

وثمة زجاج معتم ترى ما وراءه ولا يسمح لأحد أن يراك . هذا الزجاج المخادع ، هو زجاج للعيون المتلصصة الحذرة ، للمتابعات غير المشروعة أو المشروعة على حد سواء . يستر عري النفوس الخائفة والنفوس التي تجابه دناءة أن تتلصص ، أن ترى ولا تُرى ، يستر هذا الزجاج ضعفها أمام تيقظ سوء ظنها واضافات احساسها بالصغار والهوان .

وهناك الزجاج المزخرف بالنقوش البارزة تمسه اليد فيرعبها فقدان النعومة المألوفة ، وتصطدم به العين فلا ترى من خلفه الا أشباحا تتراقص ، معدومة الملامح ، وألوانا لا حدود لها تتداخل وتمتزج مع بعضها .

وهناك الزجاج الملون ما أن تنظر اليه حتى يمنحك الاحمر منه لون اللهب المتصاعد من الحرائق وشمس الغروب ، ويعطيك ما كان أزرق منه بهجة البحر ، وارتفاع السماء . أما الاخضر فيبتعد بك نحو امتداد الحقول والبساتين الازلية ، والاصفر يأتي اليك بالصحارى ، رمالها وكثبانها الزاحفة ، وانعكاسات النور على صفرة الرمل ، وقد يكفّ هذا الزجاج الملون عن منحك هذه الاشياء عندما لا تريد ، فالامر يتوقف على رغبتك في المقام الاول .

لقد تهشم زجاج احدى النوافذ . وسقط الحطام على الارض ، أو فوق رأس بشري ، لم يكن أحد يعلم . ني الصوت عبر الممرات المعتمة ، مجسدا ، كأنه يمر عبر أغنية تكبر الصوت وتضاعفه ، واختلط بصوت موسيقى بعيدة ، لم تكن « سيرانادا » أو « افتتاحية » انما كانت لحنا أحاديا ، يعتمد الايقاع الرتيب ، وقد تساقطت ضربات آلة الايقاع مع حطام الزجاج وضاعت . لم يعد أحد يسمعها ، لم تعد تسمع ..

قد يكون أمرا معتادا أن يتحطم زجاج نافذة ما . ن يرمى بحجر ، أو تهجم عليه قبضة يد غاضبة . وقد يتحطم الزجاج جميعه فتتعرى النوافذ في حالة غارة جوية يعقبها انفجار ... ما حدث قبل لحظات ان زجاج نافذة ما قد تحطم ، وما علمت كيف تناثر الزجاج ، بل انها لم تفكر بذلك ، أسقط على منضدة ، أو فوق رأس، أم على الارض المبقعة بالحبر والشاي والكلمات الهاربة والنوايا المختبئة بين الاقدام ؟

وعلى الاثر انفجرت ضاحكة . فامتلأ جو الغرفة بصوتها . كانت تهزج بضحكة مباغتة ، ضحكة طفل يهلل لفوز غير منتظر ، فأخذ يصيح من فرط جذل ، معلنا للآخرين حبوره وانشراح قلبه .

« شيء جميل ومذهل ... كنت قبل لحظات أتوقع تحطم شيء ما ، لوح زجاج أو قدح . أحب صوت تحطم الزجاج . أحب انهمار الشظايا دفعة واحدة نحو هدفها . وبعد ذلك يطيب لي أن أراقب رعب الآخرين . خشيتهم ، وانفعالاتهم المختلفة ، لامبالاتهم أو اهتمامهم الزائد ، ثرثرتهم ، وتعليقاتهم الفكهة أو تعليقاتهم الباردة السمجة .

في لحظة التحطم أيا كانت . أي تحطم كان . لزجاجة أو قدح أو قيمة ما ، أو انسان ، اتشوق الى رؤية البشر يقفون وجها لوجه أمام خسائرهم ، لاكتشف كيف يسلك انسان ما في وضع ما ، اذا أصابه التحطم أو مسّ بعض ما يملك أو ما لا يملك .. كيف يسلك أمام تحطم قدراته ، على المجابهة ، عندما يستسلم مهزوما وتتساقط روحه مزقا وأشلاء .

ــ ماذا يفعل المرء ازاء هذا ؟.. ماذا أفعل ــ تساءلت المرأة ــ اذا رأيت انسانا يتحطم أمامي مثل لوح الزجاج ؟

ــ سأسرع .. ألمّ الشظايا ، وأعيد تكوينها وأمنحه ــ ان استطعت ــ فرصة الوقوف مرة أخرى ، أطلب منه أن يصارع خوفه الداخلي ، خوفه الذي أدى الى تحطيمه ، وأستعبده وأذله ، سأجرّه الى أن يكاشف نفسه ويتماسك .. حتى يتوصل الى معرفة حقيقته . سأقول له : « الانسان ليس زجاجا ، أو تظن انه كذلك ؟ انك لست من زجاج » .

عند ذلك سأنتظر قليلا .. أجل قليلا جدا ، فأنا مخلوقة غاية في نفاد الصبر ، فان لم يبادر الى فعل

شيء ما لانقاذ نفسه من هزيمتها سأدعه لمصيره ، ولن ألتفت اليه .

ربما سيقال : هذا موقف مجانب للرحمة ، وبعيد عن المنطق ، وعما يقتضيه كوني انسانة ذات قلب لا يجيد سوى أن يكون قلبا .. لكني سأفعل ذلك » .

خرجت من غرفتها مسرعة ، وعادت الى الضحك ، ولما وقفت أمامه وجدته مكبا على منضدة ، ممسكا حافتها بيديه ، متوترا مشدود الذراعين وفي وجهه ذلك الشحوب الناعم المثير ، شحوب مريض تافه يستعيد قواه . نظر اليها ، فامحى الشحوب وتألق بعده اعتذار صميم لشخص أحرج في اكتشاف سر يحرص كل الحرص على كتمانه .

خفض عينيه وابتسم ضاغطا بأسنانه على شفته السفلى التي تحبها ، ثم تماسك قليلا ونظر في عينيها الضاحكتين . فلمحت شرايين وردية دقيقة محتقنة في عينيه ، وخافت أن يكون مريضا .

ولما أطال النظر في عينيها ارتبكت وهمت أن تقول شيئا . أي شيء . لا أهمية لما تقوله ، المهم أن تفعل شيئا . ولكن لا تدوخ في وقفتها الحائرة وتدوخه معها . ولكي لا تطيل حراجة الصمت بينهما آثرت أن تنصرف فأسرعت بخطى خفاف تدرج مثل يمامة فرحة . وعاوده شحوب وجهه . فضرب بقبضة يده منضدته . وأطلق زفرة خافتة ، فشعت داخل روحه كلمات ناعمة وذكريات صغيرة ، وهاجمت أنفه رائحة مروج . ومطر ونبيذ ، وروائح قهوة وريش طيور مقبلة الاجنحة ، ورائحة عنق دافيء معطر ، ومشهد نافذة مفتوحة للمطر ، وامرأة متكئة على الاريكة في ثوب ناعم طويل ، تمد قدميها العاريتين على منضدة واطئة ، فيتهدل ذيل نوبها ملامسا الارض ... وزجاج النوافذ مزخرف بالضباب والندى والليل ، والحب ، كان هو ذاته الجالس ها هنا في ارتجاف يديه . وكان هو ذاته الجالس هنالك في جبروت امتلاكه للسعادة ، للمكان . للزمان ، لحبها ، لجمال أن يكونا معا . أضافت له الضحكة الطارئة التي سمعها اللحظة مزيدا من الافتتان والتحرر من الاحساس بالفجيعة والخسران ، فأصبح قادرا على الصراخ ، والقفز والرقص ، وبدأ يتساءل : هل سيكون هو ذاته عندما تعود اليه ثانية ؟ هل ستنتهي لحظة الصمت المتوترة وتنكسر ويكون لها صوت الزجاج المهشم ؟

هنالك في الغرفة الاخرى يجمعون الزجاج ... بل انهم لم يبدأوا بعد .. سيذهب اليهم .. كلا لن يذهب .. انهم منصرفون الآن الى اجادة تقريع بعضهم وتثبيت الاتهام .. لماذا يذهب اليهم ؟

وقف أحدهم مصابا بذعر أن يجرح . أن تصيبه شظية طائشة ، فينزف كل دمه وينتهي ..

كان تفكيره منصرفا الى نقطة الموت كما اعتاد دوما أن يفعل . عندما يحدث أمامه شيء .. أقل الحوادث وأعظمها .. كلها تثير لديه شهية الموت ، كان يضع كفيه الكبيرتين أمامه ، ويتابع حركة العرق النابض في المعصم . كان يخاف الاشياء النهائية ، الارتباط بأمر ما يعني لديه مزيدا من الاستسلام للقوى المسيطرة على العالم ، القوى الخفية المجنونة ، كان يخاف أن ينتهي كل أمر لديه الى تفاهة عابرة ، يبدأ بالحماس وينتهي بالضجر ، يبدأ بالرغبة وينتهي بالزهد ..

ضم أصابعه على راحة يده ، فانفرزت اظافره فيها ، وبرز شريان ناعم حي ، نابض صغير ، أخضر ، شريان يمتد من منتصف الرسغ حتى ابتداء الكف . وللحظة استطاع ايهام نفسه بأن في هذا الشريان يكمن سر الجسد كله ، ولهذا السبب دون سواه يفضله المنتحرون .

تحسسه باصابعه المرتجفة ثم توقف :

ماذا لو سقطت عليه اللحظة شظية حادة مفاجئة ؟ سيتمزق بلا أدنى ريب ، سيقطع تماما ، ويتفصد الدم منه غزيرا . ساخنا ، نقيا ، وعندئذ لن يستطيع أي أحد ايقافه .. سينقلونه الى أحد المستشفيات ، الى أقربها وليس أفضلها ، وسيسعف ويعوض عما فقده من دم ، وتنبت حوله الشائعات ، تنمو وتعلو احداها وتكبر ليراها الجميع ، هذا رجل حاول التخلص من مأزق حياته مفضلا الموت على الاستمرار في لعبة الحياة .

لعبة الحياة ؟.. مرة سمع زميلة له تقول : الحياة وما فيها مثل جبل الجليد العائم ، ومن يقف على الشاطىء لا يرى الا جزءا واحدا من أصل ثمانية أجزاء تشكل حجمه الهائل . أما الذين يغطسون ويمارسون عناء البحث ، فانهم يرون الاجزاء السبعة الغاطسة ، سبعة أثمان خادعة ، مضللة ، تخفي حجمها الكبير تحت الماء . وعندما يكتشفون ذلك تفسد قلوبهم بالمعرفة وترهبهم خطورة هذا الجبل الخادع ، ولا يكفون عن التفكير بالاحتمالات التي تكون عادة في غاية السوء ..

جبل الجليد نوع من الزجاج الابيض ، يوهم ، يضلل . يستدرج .. تصطدم به السفن المنكودة ، فتتحطم ولا يتحطم ... تخدعها ضآلة ما تراه ، وتمتلىء بالغرور وتسير بسرعة لا تصدق ، لتنتهي حطاما تافها يضيع في متاهات البحر .

كان الرجل الخائف واقفا ، لا يدري منذ متى ، وعندما تنبه ، دفع كرسيه وابتعد عنه بحركة سريعة تنبىء عن هيجان مستتر ، وحرك يده على نحو حائر ، فاصطدمت بدورق وقدح ، وتناثر الزجاج مرة أخرى.. فأصبح الرجل محاصرا بالزجاج من الجانبين ... غطت وجهه غمامة من أسى . وقف مترددا يتأمل ما الذي سيفعله امام حصار لا يملك ازاءه الا المخاطرة ، أحس ان عليه أن يتخذ قرارا بالخلاص من المأزق . قد لا يكون قرار ما قرارا حكيما ، ولكنه على أية حال يكون ضروريا في موقع الدفاع عن النفس . عليه اذن أن يتجه الى

أحد الجوانب . لينجو من حصار الزجاج ، والا فانه سيتحطم خلف منضدته كما تتحطم قارورة هزها انفجار أو زلزال ، فتشظت في موقعها لكنها تماسكت ولم تتساقط حطاما . ومتى هبت عليها الريح أو هوجمت بحركة مباغتة ، انهارت مرة واحدة .. تحرك ووقف قبالة النافذة ، ورأى طفلا يعدو على حشائش الحديقة المجاورة ، والشمس تحتل لون ملابسه وتؤجج لون شعره ، فيتألق الطفل بكامله ، يصبح مثل تمثال ناعم ، شفاف ، مشع ، يركض ويعبث ويضحك ، يقفز ثم يسقط على الحشائش فيخشى الرجل أن تحترق بوهجه . لكنه يطمئن عندما ينهض الصغير ، ويعاود لعبه . لحظتها اكتشف ان نور الشمس وامتلاء الطفل بالحياة والضجيج والحركة قد ائتلفا وأصبح النورمطابقا لحركته التي لا تهدأ ، لصوته المشتعل ، للون عينيه اللامعتين ، لنعومة ملابسه . ولما لمحه الطفل ابتسم له ، ولوّح بكفه الصغيرة الناعمة ، محركا أصابعه الطرية ، فابتسم له وأراد أن يرد على تلويحته ، لكنه أحجم عن ذلك مخافة أن يتهم بشيء ، وفي هذه اللحظة ظهرت الام محزونة الوجه رغم ابتسامتها . اقتربت من الطفل وعانقته ولما تعلق برقبتها أعادت تقبيله ثم أنزلته بهدوء واسندارت مسرعة حول الاشجار العالية والفراغ ، واختفت تماما مثل طيف عابر .

* * *

قبل قليل كان الطفل يسأل أمه :

ـ لماذا يا أمي نضع الزجاج على النوافذ ؟

صمتت الام ولم تجب .

وسألت نفسها : (لماذا نضع الزجاج ؟ النحمي انفسنا أم لنعيق أفعالها ؟) .

« الزجاج أبواب مضللة تحمي بقدر ما تعيق ، أبواب لا تعلن عن نواياها فجأة ، بل توهم المرء بالنفاذ منها الى حيث يهوى ، فاذا ما اقترب صدّته ، فتحطمت رغباته على سطح الزجاج الاملس » .

« كم مرة أردت النجاة من حصار ما ، في محاولة الخروج من ضعف ما ، حاولت القفز من نافذة ، وكان ذلك لا يكلفني غير قدر قليل من الشجاعة ، ارفس الزجاج بقدمي فيتهشم وأنجو .. يوما » .

عندما أمسك بيدي أملا ، عندما أفقد مفاتيح أبواب النجاة وأشعر بالحصار على نحو كامل ربما سأفعلها ، قبلا كنت دائما ما أفكر بمآل الامور : ما الذي سيحدث لو فعلت ذلك ؟.. وكنت أخاف وأرتعب فأتراجع ...

عندما سأقدم على ذلك في يوم ما ، سيكون الاوان قد آن لفعله ، فلا أسمع لحظتها أصوات اللوم ، ولا تخزّني ابر التراجع ... سيكون كل شيء مبررا ومطلوبا ، بل مشروعا . سأكون قد بلغت من القوة ، حدا أهرع معه الى مصيري دون أن ألتفت الى الخلف ، فاما ان ارتفع بنفسي عن خداعها أو أسقطها كحجر في بركة عميقة . أرتفع او أسقط ، أسقط أو أرتفع ، أسقط . أرتفع . يظل الامر نسبيا في الزمان والمكان ، سارتفع في موقع اذا انخفض ما حوله . وأسقط في الموقع ذاته اذا ارتفع ما حوله . لكن ارتفاعا ما سيكون حفيفه اذا ما آمنا به . سأصبح حالة مجيدة ، وأقول لانسان أرتضيه : « لا تضيع ما يتاح لنا ، أنا مقبلة على اكتشاف غدي .. أقطع المسافات بارقام قياسية ، أعدو اعدو . فتتساقط الحواجز تباعا.. زجاج نوافذ ، زجاج واجهات . زجاج تعاليم يابسة ، وتعاليم أصابها الرشح، زجاج الاهاجي المتين .. تتساقط الساعات التي تحدد الزمن بين قوسين والساعات التي تضيع الزمن خارج الاقواس والفواصل . تجعله فضفاضا واسعا رخوا ، لا يحتفظ بأحزان البشر أو بؤسهم ، أو سعادتهم ، له مسامات واسعة تتساقط من خلالها الاشياء والعواطف والقيم » .

« ... مرة حاولت تهشيم الزجاج لنافذة ما ، فتذكرت ان البيت سيفقد دريئة تصد عنه اكتساح الطبيعة . وتراجعت ، آلمني ان بيتا ما ـ أي بيت ـ سيتعرض لهذا الاكتساح .. للريح ، للغبار والبرد والمطر ... ويتعرض من فيه الى جراح تسببها شظايا الزجاج .. رأيت دما . وأكفا تنزف ، وضمادات ، وشممت رائحة أدوية مطهرة، وهكذا تراجعت ، وحافظت على الزجاج وحافظ عليه غيري ، مكرهين نحافظ ، ونحذق في تمثيل انسجامنا وتطابقنا مع حواجز الزجاج. ننظفها ، نصقلها ، نسدل عليها أستارا ثمينة ، ونبالغ في الاحتفاء بها والدفاع عنها لنكسب رضا البنائين والبائعين والحراس ، ونهاجم من يحاول تهشيمها علانية، ونغبطه في السر ، ونعجب لصمود أنفسنا أمام زيفها ، وحذقها الكريه في التضليل ، يوما ما سوف لن نتراخى أمام أكاذيبنا ، سنجلدها حتى تتهرأ ، ونجلدها حتى تتساقط .. » .

أيقظها صوت الطفل :

ـ كل مرة أريد القفز من النافذة فيمنعني هذا الزجاج الذي لا أحبه .. لماذا تضعون الزجاج على النوافذ ؟.. ألا تجيبيني يا أمي ؟

ابتسمت الام وحدّقت في العينين المتوقدتين وأخافها قليلا أن لا تستطيع ارضاء فضوله .. وخمنت انه ربما سيضحك منها .. وقد يصمت غير مقتنع ويعود الى لعبه ولهوه .

قالت : حقا انه كما تقول ..

تنبه الطفل : كيف يا أمي ؟..

استدركت الأم : نضعه لاسباب عديدة ، فنحن نرى وراءه كل ما تحجبه الجدران من أشجار وفراشات وغيوم ، ألا ترى الشمس تغمر كل شيء خارج الغرفة ؟ ألا تشعر بالدفء أم انك تحسّ بالبرد الآن ؟..

فقال دون أن يبدو عليه الاهتمام بما قالته :

ـ أريد أن أخرج الآن .. لست بردانا ..

تضايقت الأم قليلا وخيل اليها ان طفلها سيفعل ذلك في يوم ما .. سيحطم زجاج احدى النوافذ وسوف يسبب لها حزنا أكيدا وحرجا وشعورا بالقصور أو العجز، ولكنها النوافذ : هذه الجدران المرائية الخادعة .

ـ ماذا بوسعي أن أفعل ؟ هكذا هي الامور دوما ..

أمسكت بمقبض النافذة ، فأسرع طفلها نحوها .

اختض قلبها . فسمعت وجيبه ، وتأكد لها ان هذا الطفل سيكون نافذتها وأفقها . وعندما فكرت بهذا انتعش أمل صغير في روحها ، فأمسكت برأسه الناعم وقبلت جبينه ما بين عينيه ، وقبلت أذنيه وعنقه ..

قال : ما بك يا أمي ؟

ـ احبك .. ألديك اعتراض ؟

امسكت مقبض النافذة البرونزي ، حركته رافعة اياه في حركة نصف دائرية الى أعلى فانفتحت النافذة ، سحبتها . وفجأة انعكس سطوع الشمس على سطح الزجاج وانمر وجهها بالنور واغمضت عينيها اتقاء الوهج المشع .. انفتحت النافذة الى اقصى مدى ممكن وانغمرت الغرفة بالهواء الرطب . المنعش . والاصوات المختلطة من ابواق السيارات ونرثرة الاطفال وزقزقة الطيور ، ووقع الخطى ، وقالت :

ـ لا باس .. ما أن يتجدد هواء الغرفة حتى أعيد اغلاقها وأنجو من كل هذا ..

نظرت الى وجهها المنعكس على صفحة الزجاج فوجدته صافيا ، هادئا . ومدت يدها تسوي خصلات شعرها المتناثرة . وهي غالبا ما تقوم بذلك كلما واجهتها مرآة أو سطح لامع عاكس ، ثم هبطت عيناها الى أسفل عنقها ، فأسرعت اليد تزرر بحركة تلقائية فتحة القميص التي كشفت عن جزء كبير من صدرها .

فكرت : (يضايقني أن يعرف الانسان كل شيء عن نفسه وعن الآخرين .. أكره المرايا والزجاج لهذا ..) .

قبل قليل ، كانت تجد راحة وهي تعمل في البيت مثل نحلة مزهوة ، ولما أحست بالحر يضايقها والعرق يتحدر من عنقها وشعرها فتحت القميص طلبا للابتراد ، ولكنها فزعت عندما رأت صورتها منعكسة على الزجاج واحست بمأزق ان يراها أحد هكذا نصف عارية ..

انحنت تلتقط كرة صغيرة ، وخطت في الغرفة . راجهتها مرآة كبيرة بطول قامة الانسان . واعترضها سطح منضدة صقيل ، وتكاثرت المرآة في المرايا ، والزجاج ، ولما خرجت الى الحديقة تنادي صغيرها كان الماء في السواقي مرايا وزجاجا يعكس صور الموجودات كلها . وعلى هذا فقد شعرت بأنفاسها تضيق وقلبها يرتجف ، ولم يمنحها هواء الحديقة ولا شذى النباتات ولا رقة الغيوم أي احساس بالبهجة ، فعادت مسرعة الى الداخل .

لبث الرجل ممسكا بحافة منضدته . عيناه ذابلتان وأسنانه تضغط بخفة حذرة على شفته السفلى ..

من يراه لا يشك في كونه يعاني حزنا أو ألما ، أو حالة من حالات سفك المشاعر ، بل انه في واقع الامر كان يعاني من كل هذا ..

في غمرة تحطم الزجاج ، وتحطم الصمت بسقوط الزجاج ، وضحك المرأة ، سمع الرجل نداء فاستجاب وانصت جيدا . كان صوت المرأة يقترب يقترب ، يخترق الجدران والزجاج ، والزمن وسنوات العمر ، والمخاوف والحذر ، يقترب ثم يهطل عليه كالمطر .. ينقر على سطح جلده .. على كفيه المرتعشتين بعروقهما البحرية، جذور محبتهما ، ويهطل على وجهه المتأمل ، الساكن ، الغاضب ، المضطرب غيرة ، المفتون بالقسوة ، المتواضع المسكون بالصبر ، والهيام والصدق والانتظار ، يسقط صوتها المطري ، على الاوراق ، ويتجول بين الجدران والارض .. بين الجدران وحواجز الزجاج ، يدوّم حوله مثل عاصفه محتجزة بين القضبان والاعين والاهاجي والمتابعات .

يخض الجسد البشري تحت المطر ، يرتجف الرجل الذي ابتلت ملابسه ، والرعد ينذر بمزيد من المطر . وعلى الارصفة تتفجر فقاعات الماء تباعا مثل بالونات صغيرة أو لآلىء انفتحت عنها المحارات . بأي شيء يحتمي الرجل ؟ أبالمظلات ؟ أم بأفاريز الابنية ؟.. بالظلمة أم بالنور ؟.. بالزجاج ؟!.. الزجاج المعتم ، الزجاج الرطب ، الذي سالت عليه قطرات الماء المتكاثفة، من بخار أباريق الشاي والافواه ، والنباتات السجينة ، والافرشة المبتلة ، والخبز الطري ، واكداس الحطب التي لم تجف .

« كيف ستراني بعد قليل ؟ هل ستكتشف غرقي في ملابس بللها المطر ؟ ستخجل مني وتخجل من أجلي حين ترى شعري قد تهدل والتصق على صدغي مبللا مبعثرا . ستفترب مني ، وعندما تمسني ستسري الرعدة في دمي ، تسوي شعري ، بل انها ربما ستأخذ منشفة وتجففه ، وتجف ملابسي ، وستقول محتجة : « المطر ... الا نكف عن جنون الاستسلام للمطر ؟ أن تستقبله دون اعتبار للنتائج ؟ » .

تفرعني مثل طفل وتحبني مثل رجل وتفارقني مثل أخت لكنها ستأتي بعد ساعات ثلاث . ينتهي المطر وتجف الملابس . والشعر والروح ، ستجدني جافا في جحيم انتظاري لها ، يتبخر نسغي مع المياه التي تصاعدت من الارض حال ظهور الشمس ، أنتظرها ، أروح وأجيء ، تتأخر دقيقة أو دقيقتين ، فيفترسني خوف أن تصاب بأذى .. ثلاث دقائق وأسمع تحطم زجاج نافذة ما ، نافذة سيارة مسرعة تتهشم عندما تصطدم بسياج واطيء، زجاجة فارغة ألقى بها صبي وسط شارع مزدحم ، شيء ما يتحطم فأرتعب . اربع دقائق ، لن تأتي .. يختض

جسدي مرة اخرى ويجف حلقي .. هل ستهجرني في يوم ما ؟ تهجرني مثل أخت عاقلة ترحل الى بيت زوجها ؟.. وتعطيني تذكارات عرضة للفناء ، منديلا ، رسائل ، كلمات ، كلمات .. لن أحتفظ بهذه الاشياء الرهيبة ، فليأخذها مني من يشاء ويعيد اليّ حبيبتي .

أتظن انها بذلك تعوضني ؟ تعوضني بهذه الاكاذيب الدنيوية عما لا يعوض ؟.. أقايض وجودا بشريا بأصداء كلمات ، بأوراق وروائح .. كلمات وتذكارات . لحظتها سيسقط العالم ، تموت هي وتجفّ مثل غصن مكسور ، وأموت أنا ويتحطم الزجاج بعدنا ، أصرخ قبل موتي : لقد خسرت ..

فيتجمع حولي أناس بلهاء ، أو ذوو عواطف طرية ، أو أناس ذوو فضول وآخرون عابرون ، سيهوّنون الامر عليّ ويربت بعضهم على كتفي فأصرخ بهم : لقد خسرت .. انها خسارتكم جميعا ... خسرت .. خسرت ..

هي لا تأتي .. بل ها هي تطلّ من نافذة حافلة ، من نافذة قطار ، من لا مكان ، من كل مكان . خمس دقائق . لقد أتت . مهلا أيها القلب ، لقد جاءت . لم اخسر غير حزني وسوى خوفي واضطرابي . ها هي تمد يدا وعينين وفما متألقا ، تمدّ لي زمنا ووعدا ، بأن تكون لي ، أصدقها ، لانني أريد ذلك ، ولأنها لا تريد سواه . لا أريد أن أغدو مخلوقا قابلا للتهشم أو الشفقة أو النفور أو العجز . لا أريد أن أصبح « هو » . أريد ان أظل في صوتها « أنت » . لا أتخلف عن الحضور لحظة واحدة ، في نبضها وحزنها .

وعندما يصيبني ضعف أن أبتعد عنها في لحظة جنون ، ستكون ذريعة عيش انني أراها وأتخذ من صوتها متكأ للحلم . كلا ، ستكون ذريعة موتي انني مبتعد عنها.

نظرت الى وجهها ، وأمسكت بخيوط الحزن فيه ، كنت أعوم في حزنها ، في لوعة عينيها وبهجة ابتساماتها، كنت أجدني فيها . قبل ذاك كنت وحيدا ، تنعكس صورتي في المرايا والزجاج ، وأتكاثر وحدي الآن أنا فيها وهي فيّ ، نحن وحدنا ، ننجو سوية بالحزن أو بغيره . عندما أفاجأ بجبال حزنها في لحظة ما ، أسائل نفسي :

ـ هل أرضيتها ؟.. أم هل بالغت في صب قسوتي على رأسها ؟..

هل غاليت في احتكامي لتعاليم الارض ، للمثل ؟ وان حصل ذلك فلماذا لا تعترض على مظالمي وأخطائي ومساوئي ؟ لماذا لا تواجهني وتهجرني ؟ أليس لانها تحمل بركة المحبة المفتداة ؟.. أليس لأنها تحبني أكثر مما أحبها ؟

هل أستطيع مع وساوسي أن أدرك عمق مشاعرها ، رقتها ، عذاباتها ؟ انني أضلل نفسي .

أطلت ومدّت الي وجها وزمنا وحبا تريد له أن يكون ببساطة صادقا . مدت اليّ وعدا وانتمت الي وانتميت اليها ، وسألتها :

ـ هل سيدبّ السأم يوما الى حبنا ؟..

فقالت : ـ هذا منوط بك ، ومرهون بحفاظك عليّ وعليه .

نجلس الى بعضنا ، فأقبّل أصابعها وأعتذر . تقول : كلا . لن تعتذر ، انك تراهن على صدقي ، وهذا ما لا أرتضيه لك ولنفسي ..

لن يكون ما بيننا اعتذارا ولا لوما ، ولا ظل أسف . سيكون ما بيننا انك تعرفني كما لا يعرفني أحد، وأعرفك كما لا يعرفك أحد .

وصمتت واستكانت واسترخت كتفاها وهدأت ملامحها ، ثم فجأة وقفت وقالت :

ـ لماذا لا تحسبني أشد غيرة مما أنا عليه في الواقع ؟ لماذا لا تفكر مرة واحدة بأنني تدوخني الافتراضات ؟ لو أجمع خطاياك .. لو أجمع سنواتك أمامي .. أتفحصها ، أنقب في مزاياك ، ومساوئك ، أجمع عدد المرات التي برعت فيها في انتشال نفسك من التجربة والتي تآمرت فيها ضد نفسك ... أتعرف لماذا ؟.. ما الذي يدفعني لذلك ؟

ـ الثأر لنفسك مني .

ـ بل الدفاع عن هذا الحب .. فهل ستحاول تضليلي بعد ذلك ؟..

ـ لم أضللك يوما .

ـ ولم أضللك أبدا .

عند ذاك سمعت صوت تحطم الزجاج وضحكها والرعود ، تمازجت الاصوات عاتية ، صاخبة ، مختلطة ، ولما ابتسمت لي ، لم أعد أسمع شيئا ، لم أعد أسمع » .

ضرب بقبضة يده سطح المنضدة ، ووقف محيرا مهتاجا ، ثم ترك مكانه وانطلق الى الشارع لائذا بالمطر والريح .

* * *

غادر الرجل الآخر الذي حاصرته الشظايا موقعه وتنفس بعمق ، ثم جلس على الاريكة المقابلة . نظر برعب الى كومتي الشظايا على جانبي الغرفة ، ثم عاود النظر الى النافذة ، فألفى الريح مدومة والاشجار تتحرك ولون السماء قد تغير الى رمادي ، قبيح . تحركت الاغصان في كل اتجاه ، فتعسر عليه معرفة اتجاه الريح ، وخمن انها قد تكون شمالية غربية أو جنوبية شرقية ، وربما كانت شرقية غربية . واستفزه هذا ، فقال :

ـ كيف تهبّ ريح مثل هذه ؟ وما اتجاهها ؟ تدور من الشرق الى الغرب ، ومن الغرب الى الشرق ؟ لا أدري !..

بغداد